المحاضرة الثامنة-8-

نشأة البابوية وتطورها

بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية كديانة يسمح باعتناقها وفقا لمرسوم ميلان سنة 313م، انتظم المسيحيون في كنائس عديدة يديرها أساقفة منتخبون ويساعدهم قساوسة وشماشمة، وهو ما أدى إلى تشكل المناصب الكنسية بالتدرج إلى أن صار هناك ستة بطاركة يتوزعون على أهم المدن المسيحية وهي: القدس، أنطاكية، الإسكندرية، قرطاجة، روما، القسطنطينية.

شكل البطاركة الستة رأس التنظيم الكنسي وينوب عن كل واحد منهم رؤساء الأساقفة الذين يشرفون على عدة أسقفيات في إقليم واحد، ويليهم الأساقفة الذين يشرفون على شؤون الكنيسة في إقليم معين، ثم يأتي القساوسة في أدنى السلم الكهنوتي.

اتخذت الكنيسة من النظم الإدارية الرومانية نموذجا لتقوية جهازها وحماية أتباعها، لذلك ركزت على وجود شخصية قوية تقودها تماثل شخصية الإمبراطورية، وهو ما أدى إلى ظهور فرق واضح بين الكنيستين الشرقية والغربية، حيث أن كنيسة القسطنطينية كانت تخضع لسلطة أباطرتها الذين صاروا يحكمون بمبدأ القيصرية البابوية التي تجمع بين سلطة الإمبراطور السياسية ومهام البابا الدينية.

وعلى العكس من ذلك فإن الكنيسة الغربية تحررت من سلطة الأباطرة بعد سقوط روما، وهو ما جنبها المصير الذي وصلت إليها نظيرتها بالقسطنطينية.

إزداد نفوذ الكنيسة بعد سقوط روما وتضاعفت ممتلكاتها لدرجة صار فيها الأساقفة بمثابة الحكام الدنيويين، يمتلكون الأراضي ويشرفون على الأعمال العامة بالمدن ويجمعون الضرائب ويعينون الموظفين.

برزت كنيسة روما كقوة روحية وسياسية واتخذ أسقفها لقب البابا مدعيا السلطة على جميع الكنائس المسيحية، ورغم معارضة كنائس الشرق فإن البابوية في روما تمكنت من فرض هيمنتها على الغرب المسيحي بشكل عام في عهد البابا جريجوري الأول (590-604م).

عوامل بروز الزعامة البابوية:

1/ الأهمية التاريخية والحضارية لروما مكن أسقفها من استغلال شهرتها الكبيرة وماضيها العريق في تحقيق زعامته على أسقفيات الغرب المسيحي.

2/ ارتباط روما بالقديس بطرس أحد حواريي النبي عيسى عليه السلام، حيث أسس بها أول كنيسة مسيحية وهو ما خلف اعتقادا لدى المسيحيين مفاده أن أسقف مدينة ما يعد خليفة لمن نشر المسيحية أول مرة بتلك المدينة، فاعتبر أساقفة روما أنفسهم خلفاء للقديس بطرس.

3/ إلتجاء بعض الأساقفة إلى أسقف روما من أجل استئناف بعض الأحكام الصادرة عن المجامع الإقليمية، وهو ما جعل أسقف روما يبدو كالحاكم الأكبر.

4/ دعم الأباطرة لسلطة البابا، ففي سنة 455م أصدر فالنتيان الثالث مرسوما يقضي بخضوع جميع الأساقفة للبابا.

5/ تحمل البابوية أعباء حماية الغرب الأوروبي من الغزو الجرماني، حيث حال البابا بين الهون وغزوهم لروما، كما أنقذها من احتلال اللومبارديين وهو ما أدى إلى توسع سلطانها وزيادة نفوذها.

6/ أدى سقوط عرش الإمبراطورية الغربية سنة 476م إلى إتاحة المجال أمام البابا لفرض سلطته الدينية والسياسية، حيث حل البابوات محل الأباطرة بروما.

7/ بروز شخصيات قوية تعاقبت على كرسي البابوية جمعت بين السيادة الدينية والسياسية، أمثال البابا داماسوس الأول (366–384م) الذي ألف كتابا شرح فيه مكانة أسقف روما وسيادة البابوية، وأمر بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية لتسهيل انتشار المسيحية، وكذلك البابا سيريكيوس (384–399م) الذي استخدم لقب البابا رسميا في الخطابات، وسن المراسم البابوية التي تمثل مختلف الطقوس التي يقوم بها عند تسلمه لكرسي البابوية، وأيضا البابا ليو الأول (440–461م) الذي تم في عهده الإعتراف بسيادة البابوية على كافة كنائس الغرب المسيحي.

8/ أدت الممتلكات الواسعة للكنيسة بروما في جعل البابا يستغني عن مساعدات الحكام، حيث ترسخت سيطرته لدرجة تجهيزه للجيوش للدفاع عن سلطته وممتلكاته.

المؤسسات البابوية:

1/ البلاط البابوي: انقسم بدوره إلى عدة إدارات أهمها:

أ/ الديوان البابوي: يتشكل من مجموعة إدارات ومن بين مسؤولياته الإشراف على البريد الوارد والصادر من البابا، كما يضم مختصين في إصدار المراسيم البابوية.

ب/ المندوبون البابويون: مهمتهم عقد المجامع الدينية والفصل في القضايا الهامة التي قد تطرح في بعض الأقاليم، ولا يمكن لأحد نقض قراراتهم سوى البابا.

ج/ المحكمة البابوية: تنظر في استئناف القضايا التي حكمت فيها المحاكم الكنسية الإقليمية .

د/ الإدارة المالية: تختص بحساب الإيرادات والمصاريف.

2- الكنيسة: اعتمدت في بداية نشأتها على التقشف والزهد، غير أن الانتشار الواسع للمسيحية وتراكم الثروات والهبات وتزايد الممتلكات، أدى إلى توسيع جهازها الذي صار يتكون من:

أ/ البابا: وهو رأس الكنيسة وصاحب أعلى منصب فيها.

ب/ الكرادلة (جمع كاردينال): وهم مجموعة مختارة من كبار الأساقفة يعملون كمستشارين للبابا ويعيشون في البلاط البابوي.

ج/ رئيس الأساقفة: وهو الذي يشرف على كنائس إقليم معين.

د/ الأسقف: يقيم في كتدرائية (الكنيسة المركزية في مدينة معينة).

هـ/ القس: وهو الذي يشرف على كنيسة القرية ويعاونه الشماس والراهب.

3- الدير: يقصد بالأديرة تلك الأماكن البعيدة والمنعزلة عن الناس التي كان أتباع المسيحية يلجأون إليها لممارسة شعائرهم التعبدية هربا من المتابعات والمضايقات التي كانوا يتعرضون لها من طرف المعادين لها، وانقسمت الأديرة بدورها إلى قسمين:

أ/ الديرية الإنفرادية: وهي التي ينعزل فيها الفرد وحده متأملا ومتعبدا.

ب/ الديرية الإجتماعية: وهي التي تضم جماعات من الناس تشارك بعضها البعض في ممارسة الطقوس والممارسات التعبدية، ولعل أشهرها تلك التي ارتبطت بالقديس باخوم ت348م الذي نجح في تأسيس عشرة أديرة جماعية، منها واحد خاص بالنساء.

أما عن تاريخ ظهروها فيعود إلى القرن الثالث ميلادي على يد القديس بولس (251-356م) بالشرق سابقة بذلك روما التي عرفت ظهور الأديرة في القرن الرابع ميلادي على يد الراهب أثناسيوس، غير أن انتشارها الفعلي كان في القرن السادس ميلادي على يد القديس بندكت ت543م الذي أسس أول دير بمنطقة مونت كاسيغو سنة 529م .

وتجدر الإشارة إلى مسألة هامة وهي أن الأديرة لم تسلم من الفساد الذي كان الغرب المسيحي يشهده بين الفينة والأخرى.